جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل
قسم اللغة و الأدب العربي
محاضرات مقياس النثر العربي القديم للسداسي الثاني
تخصص :أدب عربي قديم
المستوى :ماستر 1
أستاذ المقياس :عمر بوفاس

عنوان المحاضرةالأولى: فن المناظرة

المناظرة في اللغة:
تناولت المعاجم اللغوية كلمة المناظرة في مادة نظر ،فقد جاء في لسان العرب لابن منظور،و المناظرة أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتيانه، و التناظر التراوض في الأمر، و ناظره من المناظرة...". و جاء في المصباح المنير " ناظره مناظرة جادله مجادلة " و في المعجم الوسيط " ناظر فلانا باحثه و باراه في المحاجة و تناظر القوم في الأمر تجادلوا و تراضوا و المناظر المجادل المحاج " .
المناظرة في الاصطلاح :
هي حوار و مناقشة أو محاضرة يشترك فيها اثنان أو أكثر بحيث يتبنى كل واحد رأيا مخالفا يحاول أن يعرضه مع براهينه تأييدا لرؤيته و دحضا لرأي خصمه و الفائز من المتناظرين هو صاحب البراهين الدامغة و الأسلوب الرشيق و البراعة في الحديث .
و عليه فالمناظرة محاورة بين فريقين حول موضوع محدد لكل منهما وجهة نظر فيه تخالف وجهة نظر الآخر ، مع الرغبة الصالحة بظهور الحق و الاعتراف به عند ظهوره .
أركان المناظرة:
للمناظرة ركنان هما :الأول: الموضوع الذي تدور حوله المناظرة ، و الثاني: فريقان يتحاوران حول موضوع المناظرة احدهما مدع و الآخر معترض عليه .
آدابها: كي تسير المناظرة على الوجه الصحيح و تحقق الغرض المنشود منها يجب أن يلتزم المتناظران بمجموعة من الآداب و يتقيدا بها ، أهمها :

- أن يتجنب المناظر مجادلة ذي هيبة يخشاه حتى لا تؤثر ذلك عليه فيضعفه عن القيام بحججه كما ينبغي، و أن لا يحقر خصمه فيقلل من اهتمامه فيتمكن خصمه الضعيف منه و أن لا يظن خصمه أقوى منه فيتخاذل و يضعف عن تقديم حججه على الوجه المطلوب ، و أن يكون في حالة نفسية مرتاحة أي بعيدا عن كل قلق أو اضطراب يفسد عليه مزاجه الفكري والنفسي.
- أن يتقابل المتناظران في مجلس و أن يكونا متقاربين و متماثلين علما و مقدارا ، أن يتجنب المتناظر التسرع في إسكات خصمه حتى لا يفسد عليه رويته الفكرية و يستنفذ طاقته المعرفية و حتى لا يبتعد عن المنطق السديد و التفكير في الوصول إلى الحق .
- أن يتجنبا الاستهزاء و السخرية و الاحتقار و الازدراء للخصم أو ما يشير إلى ذلك كالتبسم و الضحك .
- أن يتجنب المناظر الألفاظ المجملة التي تحتمل عدة معان من غير ترجيح .

- أن يأتي كل من المتناظرين بالكلام الملائم للموضوع فلا يخرج عن صلب الموضوع .
- أن ينتظر كل منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه و لا يقطعه عليه من قبل أن يتمه.
- أن يقبل كل منهما الحق الذي هداه إليه مناظره أي الاعتراف بالخصم أثناء الهزيمة .

شروط المناظرة:

للمناظرة شروط عدة أهمها :

- أن تجمع بين خصمين متضادين أو متباينين في صفتهما بحيث تظهر خواصهما وأن يأتي كل من الخصمين في نصرته لنفسه و تفنيد مزاعم خصمه بأدلة من شأنها أن ترفع قدره و تحط من مقام الخصم بحيث يميل بالسامع إليه .

- أن تهدف إلى إظهار الحقيقة و تجنب الجدل العقيم بحيث لا جدال و لا عناد لما في ذلك من مجانبة الصواب بل الحوار الهادئ البناء العقلاني الذي يقبل بالنتائج دون مكابرة، و لتحقيق ذلك يجب أن يتقيد المناظر بالنظر و البحث عن الحقيقة بواسطة البصيرة التي هي للقلب بمنزلة البصر للعين .

- أن يكون المتناظران على علم بالموضوع الذي يتنازعان فيه حتى لا يدور النقاش في البديهيات و بغير علم ، و أن يكون الموضوع المتجادل فيه مما يجوز أن تجري فيه المناظرة ضمن قواعد هذا الفن و ضوابطه و المفردات و البديهيات الجلية فيه .

- أن يجري المتناظران على عرف واحد فإذا كان الكلام المعلل جاريا في عرف الفقهاء فليس للسائل أن يعترض عليه استثناء إلى عرف النحاة و الفلاسفة .

نشأة المناظرات:

لم يكن للعرب معرفة بهذا المفهوم فقد كانوا أميين و لم يعرفوا المحاججة و الاستدلال كما لم تكن أهم نظريات فلسفية يلجأ ون إلى تقريرها و لم تثر بينهم مناقشات علمية أو أدبية عميقة يحاول كل طرف أن يثبت رأيه فيها.

لقد ظهرت المناظرات مع مجيء الإسلام و ما صاحب ذلك من الدعوة إلى ترك عبادة الأصنام إلى عبادة الله فكان طبيعيا أن تظهر المناقشات بين الطرفين و لما جاء العصر الأموي و ظهرت الأحزاب السياسية و الفرق الدينية و ما صاحب ذلك من خصومات و انتشار للمذاهب ازدهرت المناظرات في هاذين المجالين و يعد عهد الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز أبرز فترة للمناظرة حيث فتح صدره للمتناظرين استماعا و مشاركة .

و في العصر العباسي بدأت المناظرة تعرف على أصولها و قواعدها يجريها العلماء بحضور الخليفة و بناء على رغبته أحيانا حول بعض القضايا في الدين أو الفكر أو التاريخ ، و قد أصبحت هواية يزاولها المتكلمون و غير المتكلمين ، و قد توسع مجال المناظرة في هذه الفترة حيث ابتدعت مناظرات خيالية على ألسنة شخصيات خيالية كمناظرة صاحب الكلب و صاحب الديك التي أوردها الجاحظ في كتاب الحيوان أو كالمناظرة بين الفصول .

و مما شجع على ازدهارها في هذا القرن إقبال الخلفاء على سماعها و المشاركة فيها و التشجيع على رأي من الآراء أحيانا كالمهدي الذي حارب الزنادقة بالسيف و اللسان و أغرى المتكلمين بمناظراتهم و المأمون الذي جعل من مجلسه ندوة علمية يتناظر فيها العلماء و الفقهاء و المتكلمون و كان هو نفسه يناظر معارضيه ، و لم تتوقف المناظرات في عهد المتوكل رغم توقفه عن تأييدها . لقد استمر التأليف في الطعن على مبدأ معين و

الرد على الآخرين و كان الجاحظ في هذا المجال من أبرز الكتاب كما تظهره كتبه و رسائله في مجال العقائد أما في الفلسفة فقد ظهرت المناظرة التي جرت بين محمد زكريا الرازي و أبي حاتم الرازي و في النحو نجد المناظرة النحوية المشهورة بين المبرد و الكسائي كذلك جرت مناظرة شهيرة بين السرافي النحوي الذي يدافع عن النحو و يحيى بن يونس الذي يدافع عن المنطق.

عوامل ازدهار المناظرات:

لقد ساعدت عدة عوامل في نشأة و ازدهار المناظرة عند العرب أبرزها:

– القرآن الكريم الذي اشتمل على الأسلوب الحواري بين الأنبياء و الرسل و الجاحدين من أقوامهم ، و دعوة القرآن إلى النظر و التأمل و الاستنتاج فكان بذلك النواة الأولى للتفكير و اختلاف الآراء و ظهور المناقشات و المناظرات .

– و كان الرسول صلى الله عليه و سلم في إباحته الاجتهاد إن لم يكن هناك نص من الكتاب أو السنة (حديثه مع معاذ بن جبل لما أرسله إلى اليمن) ، وقد جرت مناظرات بين الرسول و المشركين .

- تطور الأحداث و المجتمع العربي فقد ظهرت أحداث جديدة فرضتها الظروف السياسية و الدينية بداية من وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم و اختلاف الأنصار و المهاجرين حول الخلافة و تناظرهم حول ذلك و اختلاف وجهات النظر بين أبي بكر و عمر و بين سائر الصحابة ثم ظهور المذاهب الفقهية و أهل الحديث و أهل الرأي (الفرق الدينية) .

- الخلافات السياسية التي اتسعت منذ خلافة عثمان و علي و خلافة الدولة الأموية حيث تناظرت الأحزاب حول الأحق بالخلافة ثم جاء العباسيون و دخلوا في مناظرات مع العلويين حول الخلافة و الإمامة و الوصية .

ـ الخلافات العقائدية و تجلت حول القرآن الكريم بالأخذ بظاهر النص و تفويض ما خفي علمه إلى الله تعالى ثم جاء الشيعة و الخوارج يثيرون الخلافات العقائدية ثم اتسعت الخلافات و ظهر الحسن البصري و تحدث عن القدر ثم ظهرت فرقة المعتزلة و خوضهم مناظرات ضد الفرق المخالفة لها .

ـ حركة الشعوبية التي قامت على فكرة العجم و العرب و عابت عليهم كل مظاهر حياتهم و رد العرب عليهم و تأليف كتب في هذا المجال كما كانت مناظرات بين أصحاب الديانات الأخرى .

ـ تشجيع الخلفاء للمناظرات و اهتمامهم بذلك كان نابعا عن حبهم للبحث و الحرية الفكرية لقد شجعوا بعقد مجالس للمناظرة في قصورهم و منحوا المتناظرين المكافآت السخية على ذلك . – إظهار المقدرة فقد كان بعض المتكلمين و الأدباء يظهرون براعتهم فيمدحون الشيء و ذمه كما فعل الجاحظ في مدحه الكتاب و ذمهم .- إعجاب الناس بالمتكلمين باعتبارهم المناظرين عن الدين و المبطلين عن لافتراءات الأعداء .

أنواع المناظرات:

تتحدد نوع المناظرة باعتبار موضوعها.

-المناظرات الدينية و السياسة :

التي دارت حول نظرية الخلافة و الحكم و الإمامة التي تجلت بدايتها بعد وفاة الرسول إلى غاية العهد العباسي . و دارت مناظرات أخرى بين الشعوبيين و العرب أثناء الخلافة العباسية و قد تركزت حول المفاضلة بين الفرس و العرب حيث افتخر الفرس عن العرب و

رد العرب عليهم ،كذلك المناظرات التي نشطت بين مختلف المذاهب الكلامية و العقائد بين المسلمين أنفسهم أو بينهم و بين أصحاب الديانات الأخرى .

-المناظرات الأدبية:

أشهرهما مناظرتان حدثتا في القرن الرابع الهجري إحداهما بين الحاتمي الناقد و المتنبي الشاعر و أما الأخرى فكانت بين بديع الزمان الهمداني صاحب المقامات و أبي بكر الخوارزمي ، والمناظرة الخيالية بين ابن حبيب الحلبي بين فصول السنة أو مناظرة الجاحظ بين الخريف و الشتاء و ابن الوردي بين السيف و القلم .

-المناظرات النحوية:

أشهرها المناظرة التي جمعت بين سيبويه و الكسائي فيما عرف بالمسألة الزنبورية .

خلاصة:

تعد المناظرة مظهرا لتطورالنثر الفني العربي القديم بما عبرت عنه من موضوعات مختلفة سياسية ،دينية ،علمية ،نحوية، خيالية و بما قدمته من أسلوب عكس مستوى النضج الفكري و العلمي الذي بلغه العقل العربي في مسار تطوره في العصـــــــــــر الأموي و العباسي ،كما تعكس بواكير و إرهاصات فن القص مثلما تجليه لنا المناظرات الخيالية .

ينظر الكتب التالية :-المعاجم اللغوية

ـ مصطفى البشير قط :مفهوم النثر الفني و أجناسه في النقد العربي القديم.

- حسين الصديق :المناظرة في الأدب العربي الإسلامي.

-أحمد أمين مصطفى:المناظرات في الأدب العربي.

-عبد الرحمن الميداني:ضوابط المعرفة و أصول الاستدلال و المناظرة.

عنوان المحاضرة الثانية:أدب الرحلة

تمهيد:

عرف الإنسان الرحلة منذ القديم ولدى جميع الأمم السابقة عند الإغريق اليونان الفرس و العرب الأوروبيين منذ عصر النهضة بدافع تلبية الحاجات أو التوسع الاستعمار و الاستكشاف.

وعد العقل العربي عقلا واصفا بما عرف عن العرب من رحلاتهم المختلفة ووصفهم للبلدان و الممالك و الشعوب في كتبهم، لذلك يعتبر أدب الرحلة تدوين للمشاهد و الملاحظات،لكن هذا النوع من الإنتاج الفكري و الأدبي و الجغرافي ،الذي عظم في مرحلة متقدمة من التاريخ الإسلامي لم يكن واضح الحدود،فهو فن كتابي مناسب لكل فن ،لأنه يمكن أن يسكب فيه أي شيء من الموسوعات العلمية و فهارس المتاحف وحكايات الشعوب و غيرها. وبالرغم من طغيان الطابع الوثائقي على هذا النوع من كتب الرحلات يبقى نوعا من التعبير الأدبي الهجين و الضبابي ،لكن الاطلاع عليه يفضي إلى قيمة كبيرة قد تكون محصلة لمعارف جمة. فماذا نعني بأدب الرحلة أو الرحلات،وما هي الدوافع التي أدت إلى ظهوره وازدهاره عند العرب قديما،ومن أشهر الأعلام الذين كتبوا في هذا المجال، ثم ما هي الخصائص الفنية التي من خلالها نعد هذا النوع من الكتابة كتابة أدبية؟

في مفهوم أدب الرحلة:

يمثل أدب الرحلة لونا له بواعثه و خصائصه و له أدواته الفنية ،و هو لون أدبي ذو خصوصية تميزه عن الألوان الأدبية النثرية الأخرى إذ يختط له خطا متميزا،فهو يعني برصد الواقع كما هو دون اللجوء إلى الخيال إلا في محاولة لتقديم الواقع في ثوب أدبي.

ومن تعريفات أدب الرحلة : الكتب الرحلية أو المقالات التي سجل فيها أصحابها مشاهداتهم و حوادثهم و أراءهم الرحلية على اختلافها و تنوعها من خلال شعورهم بها ورؤيتهم لها في لغة أدبية موحية .

و الرحلة ميدان واسع يتنافس فيه الأدب و التاريخ و الفنون و علوم أخرى ، ولكنها في بعض أشكالها فن أدبي خالص أو أقرب إلى الفن الأدبي ، وعلى هذا النمط تصير الرحلة فنا مختلطا لا يجمع شتاته إلا صاحب الرحلة.

و للكاتب الحرية أن يكتب ما يشاء و بالطريقة التي يريدها ، ومن هنا فإن الرحلة أقرب في الحقيقة إلى المذكرات التي يدون فيها كاتبها و بشكل عفوي ما حدث له أو شاهده أو سمعه في رحلته .

و الرحلة في اللغة تدل على السير و الضرب في الأرض و يقال رحل الرجل إذا سار ، و رحل رحول و قوم رحل أي يرتحلون كثيرا ،و إبل مرحلة أي عليها رحالها و هي أيضا التي وضعت عنها رحالها.و الرحلة بمعنى الانتقال من مكان إلى آخر ،وارتحل القوم عن المكان أي انتقلوا. وجاءت الرحلة بمعنى الجهة التي يقصدها الإنسان ،و الرحلة الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، ونقول أنتم رحلتي أي اللذين أرتحل إليهم .و تطلق الرحلة على السفرة الواحدة،فالشخص الذي قام بالرحلة قد ترك موطنه وانتقل و سافر من موطنه قاصدا جهة أخرى ،لذا كان لفظ رحلة أعم و أشمل مما يطلق على المسافر من مكان إلى أخر،و الرحال أو الرحالة الرجل يخرج إلى بلد أخر أو أكثر

دوافع الرحلة و المغامرة عند العرب:

ـ حث الخلفاء و الأمراء من يتوسمون فيهم اليقظة و حب المعرفة على السياحة و الرحلة،فقد قال المأمون "إنه لاشيء ألذ من السفر في كفاية و عافية لأنك أديبا تحل كل يوم في محلة لم تحل فيها و تعاشر قوما لم تعرفهم.

ـ حث رجال الدين والعلماء على السفر،ففيه أحد أسباب العيش و معرفة العلماء و الشيوخ و الأخذ عنهم، كما أن السفر يجلب المكاسب و يصقل العقول .

ـ الرحلة السياسية :لقد اندفع العرب من جزيرتهم بقوة خارقة لافتتاح الممالك و انتشروا في القارات الثلاث و دكوا عروش الكفر و رفعوا راية الإسلام ، وتطلب هذا العهد الجديد سفارات سياسية عديدة فاكتشفوا الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في تلك الأمصار و صار بإمكان كل مسلم قادر على الرحلة أن يجوب الأفاق التي انتشر فيها الإسلام أو الأفاق التي تبعت الخلافة الإسلامية.

ـ التجارة و كسب العيش :توسعت مطامح العرب الاقتصادية بهذه الفتوح البرية و البحرية حتى غدت الدولة الإسلامية سوقا مشتركة تزدهر فيها التجارة وتعتبر رحلات ياقوت الحموي ذات علاقة أساسية في التجارة فنجم عنها كتابه" معجم البلدان".

ـ السياحة :نمت الغريزة العربية على حب الاطلاع و البحث فكانت السياحة في أكناف الأرض وملاحقة زوايا العلماء و أضرحتهم و الاستفادة من علوهم و التبرك بمقاماتهم ، فكان هذا من أكبر عوامل إغناء المعرفة الجغرافية ومن أعظم السائحين الجغرافيين الاصطخري و الإدريسي و المسعودي و ابن بطوطة .

ـ الحج : الحج أحد الفروض الخمسة لمن استطاع إليه سبيلا إذا تهيأت الظروف الاقتصادية و كانت الطرق المؤدية إليه آمنة فاندفع المسلمون من مشارق الأرض و مغاربها لأداء هذه الفريضة .

و هناك دوافع أخرى مثل طلب العلم و حب الاستكشاف و معرفة عجائب البر و البحر.

أشهر أعلام أدب الرحلة:

أبو الحسن المسعودي 896- 957 م:مروج الذهب و معادن الجوهر.

ابن حوقل:صورة الأرض كتبه سنة 977 م.

محمد بن محمد الإدريسي:1099 -1160 م نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

أبو الحسن محمد بن جبير الأندلسي 1145 1217 م تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار.

أحمد ابن فضلان :رحلة ابن فضلان في القرن العاشر الميلادي.

ياقوت الحموي :معجم البلدان توفي في القرن الثاني عشر الميلادي .

ابن بطوطة 1304 1377م تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ،و تعد رحلته من أشهر أدب الرحلة في العالم.

الحسن الوزان (ليون الإفريقي)1494 -1554 م وصف إفريقيا

ابن خلدون : توفي في القرن الخامس عشر ،رحلة ابن خلدون

علاقة الرحلة بالأدب :

قراءة أدب الرحلات متعة ذهنية كبرى بما له من ألاعيبه الأسلوبية و التخييلية ، وبما له من المكر ما يجعله فنا أدبيا ، فالمرئيات و المشاهد بمرورها من الكتابة تتخذ لها أشكالا و صورا ما كنا لنصدقها لولا الكتابة نفسها؛أي أن ما تدركه الأعيان يصير صاعقا و مدهشا بعد أن يصير متوهما في الأذهان ،فالرحالة يوفر كل طاقته التخييلية للمكان بحرا أو قصرا

أو طريقا أو مدينة ،ويوفر جهدا لغويا ،يجعلنا نحن القراء ،نصدق ما يصف من خلال كذبه (وصفه) كما قال الناقد قديما؛أي أن أفق انتظار القارئ يتسع و تأخذه اللهفة و تصبح الرحلة مرآوية يتفاعل فيها السفر و اللغة ؛اللغة مرآة السفر و السفر مرآة اللغة .

كذلك لارتقاء الوصف في الرحلة في كثير من الأحيان و بلوغه حدا كبيرا من الدقة.

علاوة على عملية الأسلوب القصصي السلس و المشرق الذي أدخل أدب الرحلات ضمن فنون الأدب العربي.

إنها نوع أدبي تجتمع فيه أساليب القصة و الشعر و المسرحية و المقالة و تجتمع فيه موضوعاتها كلها دون أن تضبطه معاييرها أو أن يخضع لمقاسها.

من هنا و جد الدارسون أن ما تركه الرحالة من كتابات قد احتوت على الكثير من الملامح الأدبية و النواحي الجمالية ،التي برزت في اختيار الألفاظ و جمال التعبير ،و بموضوعه الشمولي الغني بما فيه من أدب و علم و خرافة و أسطورة يمكننا اعتباره نمطا خاصا من أنماط القول، وأضحت ،هذه الكتابات ،بذلك مجالا للتحليل الأدبي.

المحاضرة الثالثة: ألف ليلة وليلة

تمهيد و تعريف :

تعد ألف ليلة وليلة الخرافة الأكثر شهرة في تاريخ الثقافة العربية والإنسانية .وهي خرافة تنسب إلى الراوي شهرزاد ،التي تؤطر سلسلة الحكايات في ذخيرتين أساسيتين من ذخائر الخرافة، وهما ألف ليلة وليلة و مئة ليلة .

وقد عدت عند مياجير هارديت خرافة شهرزاد بأنها أنموذجا للحكاية الإطارية ،التي تعرف بأنها "ذلك السرد المركب من قسمين بارزين و لكنهما مترابطتان ؛أولهما حكاية أو مجموع الحكايات التي ترويها شخصية واحدة أو أكثر . و ثانيهما تلك المتون و قد رويت ضمن حكاية أقل طولا و إثارة بما يجعلها تؤطر تلك المتون كما يحيط الإطار بالصورة .

وهو ما جعل تودوروف يصفها بأنها من الأدب الإسنادي، لأن التأكيد يكون فيها دائما على الإسناد و ليس على موضوعه .(لا بد أن نراعي زاوية النظر التي تناولت من خلالها هذه المفاهيم ألف ليلة وليلة وطريقة مقاربتها)

وألف ليلة وليلة، هي حكاية شهريار ملك الصين وأخيه شاه زمان ملك الفرس ،و ما تولد منها من حكايات فرعية كثيرة ...

عموما ،إنها نوع من أنواع السرد يمت بصلة القرابة إلى الخرافة ؛و الخرافة تعني "الحديث المستملح من الكذب ".

و قد عرفها بلا شير في كتابه تاريخ الأدب العربي بأنها" حكاية عجيبة ترويها النســـاء ،تتمثل عوالم الجن و السحرة ".و يحيل الفضاء الدلالي لكلمة خرافة إلى زمان التلقي ؛إذ تكون الخرافة حديث الليل .

الخرافة في التراث العربي:

وأما الكلمة من حيث التأصيل في مدونة التراث العربي فقد ورد "حديث خرافة "في كثير من المصادر العربية منسوبا إلى الرسول (ص)،الذي يكون هو نفسه متلقي هذا النص العجائبي من راويه خرافة بن عذرة ؛لقد ورد حديث خرافة عند المحدّثيين الكبار ،و ناقشه العلماء من زوايا مختلفة ،و ساجل حوله المضعفون و أصحاب الجرح و التعديل، و طعن في بعض رواته المتأخرين ؛لقد و رد في كتاب الأمثال ومعجمات اللغة :في كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة ،و في مسند الإمام أحمد بن حنبل، و في شرح مقامات الحريري للشريشي ،و مجمع الأمثال للميداني ،و في المستقصي من أمثال العرب للزمخشري.

وقد نسب (حديث خرافة)إلى عائشة ...بلغني عن عائشة قالت: يا رسول الله حدثني بحديث خرافة :رحم الله خرافة إنه كان رجلا صالحا ،و أنه أخبرني أنه خرج ذات ليلة في بعض حوائجه فبينما هو يسير إذ لقيه ثلاثة من الجن فأسروه ...إلخ

نستخلص مما سبق بأن النسبة إلى الرسول (ص)تدلنا على تقبل المنظور الثقافي الإسلامي بصورة ما للعجيب و الخارق عندما يشكلان بعيدا كل ما من شأنه أن يشكك في منظومة القيم الدينية و إنما انحصر فقط في الأسمار والخرافات الليلية التي لا تؤثر على النسق الثقافي المهيمن ،و لعل هذا ما يفسر تقبل الخرافة في الوسط الإسلامي مقابل فضاء الأسطورة التي تحيل على الأحاديث الباطلة التي لا أصل لها.ومنها:

تكاذيب العرب :

فهي تقترب من الخرافة و الأسطورة عندما تورد حديث الحيوان (ما تقوله الحيوانات لبعضها عندما كانت الحيوانات تتكلم ،كما في كتاب (الكامل في اللغة و الأدب للمبرد)حيث نجد مبالغة سارد الحديث فيها تجعلها أحاديث تدخل في باب الأعاجيب و العجب .

سبب انتشار ألف ليلة وليلة :

1/ القصاص إذ كانوا بحاجة دائمة إلى النهل من مناهل القص التي وفرها لهم الوراقون .

2/ حاجة الطبقة العليا من المجتمع إلى رفاهيتها و متعتها الفنية باقتناء كتب الأسما و الخرافات .علما أنه قد ازدهر التأليف و الترجمة في هذا النوع من الفن والقص الدنيوي الذي تجاوز التلميح كما في السير الشعبية إلى التصريح بالفحش .

في نسبة الكتاب:

عنوان الكتاب يثير شيئا من الغموض لدى القارئ خصوصا صيغة "العنوان ألف ليلة و ليلة "،وقد رجح الدارسون أن التسمية الأولى فارسية هزار أفسانة،لكنها لم تحتفظ بهذه التسمية لأنها لا تدل على علم يحتفظ به ككثير من الكتب المترجمة منها كليلة ودمنة ، فكانت التسمية الثانية عربية شعبية ،أخذت من الشكل العام للكتاب (مجموع الليالي)،و لما كان الكتاب قابلا أن يصبح و عاء للنص الشعبي العربي الذي تدفقت عليه فيما بعد ما جعل الكتاب يتضخم قرنا بعد قرن ليغدو فيما بعد كتابا عربيا بحق

في التسمية :

بقدر ما يبدو العنوان واضح الدلالة على رقم من الأرقام و على تحديد زمني من أوقات اليوم ؛ الليلة ،أو بما يحيل إليه التركيب في الجملة المشكلة ،يبقى من جانب آخر يتلبسه الغموض في ذهن القارئ الذي لا يمتلك المعلومات الكافية على الكتاب ،في طبيعته و أصله و مساره التاريخي الذي سلكه .

إن التسمية الأولى للكتاب فارسية هزار أفسانة كما تجمع الكتب القديمة والحديثة العربية والغربية التي بحثت في هذا الباب ،و لم تستمر هذه التسمية الفارسية لأنها لا تدل على علم يحتفظ به على غرار كتاب كليلة و دمنه الذي لا يبتعد عنه في طبيعته،و أن التسمية الثانية عربية شعبية ،أخذت من الشكل العام للكتاب ألف ليلة وليلة ،و أن هذا الكتاب كان قابلا أن يصبح وعاء للقصص الشعبي الذي تدفق عليه فيما بعد و جعل الكتاب يتضخم قرنا بعد قرن ليغدو فيما بعد كتابا عربيا بحق.

في تفسير العنوان :لا ينبغي أخذ الرقم ألف على محمل الجد إنما هو تعبير عن لا محدودية هذه القصص و زمنها إنه إطار زمني مرن لا يعني شيئا حقيقيا ،فالراوي يمكنه أن يطيل في الليلة و يقصر في الأخرى ،كذلك يمكنه أن يضمن الخرافة خرافات فرعية ، و بهذا يصبح العنوان مفتوحا على احتمالات قرائية ممكنة إذ يصبح دالا على اللانهائية ،و هو ما ذهبت إليه سهير القلماوي في تناولها لهذا الكتاب بالدراسة فهي تقول "تقسيم الكتاب إلى ليال ترك أثرا قويا فيه لأنه تطلب الإطالة و الكثرة من القصص"

ألف ليلة وليلة في المدونة العربية والغربية

الإشارات المبكرة التي تضمنت ذكر الليالي في المصنفات العربية القديمة ثم جهود المستشرقين عن أصول الليالي و نسبتها و طبقاتها ثم تناول النقاد العرب و المحدثين لأصول ألف ليلة و وليلة

يأتي أول ذكر لألف ليلة وليلة في كتاب مروج الذهب للمسعودي ت 246هـ في سياق حديثه عن خبر مدينة شداد بن عاد و عن مدينة إرم ذات العماد في مجلس معاوية يقول :"إن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرب للملوك بروايتها ،وصال على أهل عصره بحفظها و المذاكرة بها ،و أن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا من الفارسية و الهندية و الرومية ،وسبيل تأليفها مما ذكرنا من كتاب هزار أفسانة وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية ألف خرافة ، والخرافة بالفارسية يقال لها أفسانة ،و الناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ،و هو خبر الملك و الوزير و ابنته وجاريتها و هما شيرزاد و دنيازاد..."

و إشارة المسعودي إلى نص الليالي تكشف عن طبيعة هذا النص الأدبي و تحاول أن تصنفه انطلاقا من مادة الأخبار الموضوعة من خرافات مصنوعة التي تشكله .

إذن هناك نوعان أدبيان فيها هما الخبر الموضوع و الخرافة المصنوعة ،و إذا كان الخبر لا يلتبس على الفهم بما يحيل إليه من حدث مروي في التاريخ والاجتماع والدين و السياسة ... فإن كلمة خرافة تجعلنا نقف أمام معناها بما تدل عليه من حديث مستملح من الكذب قد يكون من وضع قصاصين محترفين .

كذلك تكشف لنا عبارة المسعودي عن نوع المتلقي لهذا النوع من الأحاديث الموضوعة و الخرافات المصنوعة إذ وضعت وسيلة يتقربون بها إلى الملوك ،فمنشؤها هو سياق الأدب الرسمي الذي يحظى بعناية الملوك و الأمراء"نظمها من تقرب إلى الملوك بروايتها ".

كذلك تبين مقولة المسعودي عن أصل هذه الأحاديث وهو النص الكتابي "و أن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا و المترجمة" ثم تفرعت عن هذا الأصل الأول صورة شفهية يدلنا عليها قول المسعودي "...نظمها من تقرب للملوك بروايتها وصال على أهل عصره بحفظها و المذاكرة بها"

لكن نص المسعودي لم يفصح عن ماهية الكتاب الذي تألف من أخبار موضوعة و خرافات مصنوعة ،هل كان عربيا أم فارسيا و هل هو من صنع الهنود أو غيرهم ؟في حين يشير إلى القصة الإطارية المشكلة لليالي عندما يصف كتاب هزار أفسانة بأنه خبر الملك و الوزير و ابنته و جاريتها و هما شيرزاد و دنيا زاد.

و يأتي بعد المسعودي ابن النديم ت 380هـ في كتابه الفهرست في سياق حديثه عن المسامرين و المخرفين و أسماء الكتب المصنفة في الأسمار و الخرافات يقول :"فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانة و معناه ألف خرافة و يحتوي على ألف ليلة و ليلة ، و على دون المئتي سمر لأن السمر ربما حدّث به في عدة ليال ، وقد رأيته بعيني دفعات ،و هو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث"

تثار في هذا القول عدة قضايا، تشير إليها عبارات ابن النديم كقضية الأولية في هذا النوع من الأخبار و الخرافات ،إذ يثبت أن أول كتاب في هذا المعنى هو كتاب هزار أفسانة الذي يعني ألف خرافة ،و هو يحتوي ألف ليلة وليلة ،كما تطفو كلمة سمر على سطح الحديث بما تحيل إليه من دلالة ترادف كلمة حديث أو قصة أو خبر ،و أن السمر قد يحدّث به عدة ليال مما يجعل هذه الليالي ما يقارب المئتين.كما يحيل نصه على كونه شاهد عيان على رؤية هذا الكتاب في أصله ،وهو يبين عن موقفه السلبي منه بأنه "كتاب غث بارد الحديث".

أما أبو حيان التوحيدي ت400هـ فقد ذكر ،في إشارة مقتضبة ،كتاب هزار أفسانة على أنه جنس من "ضروب الخرافات" ،ومنه ربما تجلت فكرة الليالي التي يقوم عليها كتابه الإمتاع و المؤانسة.

بينما يشير شهاب الدين المقرّي1041هـ في كتابه نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب، إلى الشهرة التي أكتسبها كتاب ألف ليلة وليلة.

أما أبو عبد الله بن عبدوس الجهشياري -331هـ صاحب كتاب الوزراء و الكتاب ،فقد حاول تأليف كاتب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب و العجم و الروم في محاكاة واضحة لألف ليلة و ليلة كما يدل عليه العنوان .

أما في العصر الحديث فلم يخرج الباحثون العرب عما ردده المستشرقون و الباحثون الأوربيون إذ أقروا بالأصول المتنوعة للكتاب و أنها عبارة عن قصص جمعت بتوالي الأجيال مما ترجموه أو وضعوه، وأنها أصل نقل عن الفارسية قبل ق4هـ هزار أفسانة ،نجد ذلك في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ، وكتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين و الذي أثار فيه الأصل الهندي للكتاب إلى جانب الأصول اليونانية و اليهودية لبعض القصص،أما موسى سليمان في كتابه الأدب القصصي عند العرب ،فقد انتهى فيه إلى القول بأن ألف ليلة وليلة مزيج من آداب مختلفة و ثقافات مختلفة هضمها العرب ثم صاغوها بلون عربي بارز.

في المدونة الغربية:المستشرقون:

أول من تطرق إليها سلفستر دوساسي ،كما تنص دائرة المعارف الإسلامية ،منكرا قيام فرد واحد بتأليف هذا الكتاب، و إنما هو من التأليف الجماعي ،كما سلم بوجود عناصر فارسية و هندية فيه،كما أشار إلى ما جاء في كتاب مروج الذهب حوله ، زاعما أن العبارة التي وردت فيه منحولة، بينما خالفه فون هامر ذلك و الذي أقر بصحة رواية المسعودي، و على عكس ذلك حاول وليم بلين إثبات أن هذا الكتاب ألفه مؤلف واحد ،بينما دوغويه قد أقر بأن الكتاب يتكون من طبقات متعددة،وتوسع في ذلك ميلر وقال بأن إحدى الطبقات ألفت في بغداد و أن الأخرى وهي الأكبر و الأوسع كتبت في مصر ،وكذلك أخذ نودلكه بنظرية الطبقات و فصل فيها تفصيلا أدق ،وقسم أوستير الكتاب إلى ثلاث طبقات :نواة الكتاب من هزار أفسانة في ق 3هـ والقصص التي وضعت في بغداد ق 10 و 11م و القصص التي أضيفت في مصر ق14 و 15 م،وهناك قصص مأخوذة من قصص الملك النعمان ،أما الأشعار فكانت من تأليف المحررين و الناشرين محفوظاتهم و ما نقلوه من أشعار .

في قيمة وجمالية ألف ليلة وليلة :

كتاب ألف ليلة وليلة مهّد لمصطلح (الحكاية)الذي يوحي بالشعبية و الشفوية مقابل مصطلح القصة الذي استخدمه الجاحظ في البخلاء ، وهو مصطلح ساد في أعمال معاصرة مثل حكاية أبي المطهر الأزدي و في قصص التنوخي .

كذلك أصّل هذا الكتاب إلى القصة الإطارية ؛ و هي القصة التي تحتوي على قصص فرعية أو داخلية و كل قصة لها بطلها الخاص ، وهذا النمط من القصص اشتهر و ذاع في

العصر العباسي و أصبح له جاذبية خاصة منذ كتاب كليلة و ودمنة و كتاب ألف ليلة و ليلة ،و تتميز القصة الإطارية بأنها ذات طبيعة متحولة و متحركة يتطوع فيها السرد بحيث تكون قابلة للتوسع داخل الإطار عن طريق التوالد و التفريخ للقصص و التضمين لها داخل بعضها البعض ، وهذا ما يجعلها غير ثابثة في القص الشفوي الشعبي ، و ما أمدها الشهرة لتصبح نموذجا قصصيا عربيا وعالميا .كما تطرق النقاد إلى العلاقة بين السرد و الحياة ،إذ ضمن الحياة لشهرزاد في الأخير ،وربطوه أيضا بعلم النفس في علاقته بنفسية شهريار المريضة و التي استطاعت شهرزاد أن تفك شيفرة عقدته تجاه المرأة بتمطيط السرد و توليد الحكايات و توظيف التشويق و الترغيب في سماع المزيد في الغد، ومن ثم بقاء شهرزاد حية لتكمل الحكاية إلى أن شفي نهائيا و تزوج شهرزاد ،و أنقدت هي بنات جنسها من الموت في مملكة شهريار.

عنوان المحاضرة الرابعة: السيرة الشعبية العربية

الدلالة اللغوية:

تتحدد الدلالة الدقيقة لمصطلح السيرة طبقا للسياق الذي يرد فيه و حسب الشكل السردي الخاص به.و السيرة لغويا:الطريقة و تقترن بالسنة؛ فسنة القوم طريقتهم ،وهي المعاني المحمودة والطريقة المحمودة المستقيمة.

و تدل كذلك على الحديث: سير سيرة :حدث حديث الأوائل.وتتضمن هذه الدلالة:معنى الخبر ،الحكاية ،و الإشارة إلى قديم مرويات السير، بدليل ربطها بسيرة الأوائل.

الدلالة الاصطلاحية :

في المجال الديني: الترجمة المأثورة لحياة النبي محمد ـ ص ـ .

في مجال المغازي:تدل على مناقب الغزاة ،أي أفعالهم الفروسية إبان الغزو.

في الأدب :هي نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي ،و يراد به مسيرة حياة إنسان و رسم صورة دقيقة لشخصيته.وقد شاع مفهوم كلمة سيرة في الأدب العربي مدللا على الجنس الأدبي الذي يشتمل على حياة فرد من الأفراد.وهي قسمات السيرة الغيرية أو الموضوعية و السيرة الذاتية.

واستعملت الترجمة في الاصطلاح بمعنى سيرة،لكنها ظلت تدل على تاريخ الحياة الموجزة للفرد.

الفرق **بين السيرة و الترجمة هو** :

السيرة أحالت على المرويات و المدونات التي عنت بحياة الرسول (كسيرة الرسول لمحمد بن اسحاق ت 151هـ و الطبقات لابن سعد ت230هـ))،أما الترجمة فقد أحالت على المرويات و المدونات التي عنت بخلا صات موجزة للتعريف بأعلام الحديث و الفقه و اللغة و الطب و ...

السيرة الشعبية:

تنتمي السيرة الشعبية إلى المرويات العامة و استثمار الصور المتخيلة للأبطال العظام في التاريخ العربي الإسلامي ،فالشعب و العامة تستعيد دور هذه الأبطال عبر تضخيم التخيلات و انتخاب الرموز العامة و شحنها برغباتها و إخراجها من مجالها الخاص و الدفع بها إلى المجال العام .

و السيرة الشعبية في أول أمرها الترجمة المأثورة لحياة الرسول النبي العربي و أفعاله،ثم تطور المصطلح حتى أصبح يدل على ترجمة حياة الأبطال المتميزين من الناس و أفعالهم ، و على هذا ظهرت سير كثيرة منذ ق4هـ. و ما هي إلا أن اتسع مصطلح السيرة حتى أصبح يعني الآثار الحكائية التي تسمى السيرة الشعبية ،و تمثلها في التراث العربي ست سير أساسية مشهورة هي: سيرة عنترة بن شداد ،سيرة سيف بن ذي يزن، سيرة حمزة الزئبق ، سيرة بني هلال ،سيرة ذات الهمة و سيرة الظاهر ببرس.

و السيرة الشعبية مصطلح عربي حديث أنشأه علماء الفلكلور العرب خلال الثلاثينيات من القرن العشرين ،وهو مع وجود الفارق ،مواز لمصطلح الملحمة في اللغات الغربية , وذلك باعتبارها نوعا أدبيا قصصيا جمعيا شفهيا بالغ الطول ،يعبر عن وجدان الشعب ،إذ تقص السيرة الشعبية مآثر أبطال العرب قصا سرديا بالمزاوجة بين النثر و الشعر و تنتمي كجنس إلى السرد العربي ،وهي تختزن الكثير من المواصفات الكمية و الكيفية التي يزخر بها التراث العربي .

و السيرة الشعبية نوع أدبي يطلق على **الروايات** التي رواها مؤلفون شعبيون مجهولون.وتبدأ السيرة الشعبية ببيان النسب و ذكر النبوءات المبشرة بميلاد البطل و تكونه ،ومن حيث اعتمادها على عنصر الصراع القصصي من أجل أن يحقق البطل أهدافه أو ما ينتظر منه . و البطل عادة ما تحمل السيرة اسمه ،و هو غالبا ما يكون شخصية تاريخية وردت أخبارها في كتب التاريخ و السير و الأدب ،مثل الزير سالم و عنترة بن شداد و الأميرة ذات الهمة ...

ملاحظة :لابد من التنبه إلى الفرق بين هذه التعريفات من حيث زاوية النظر الموجودة في كل تعريف .

مراحل تطور السيرة الشعبية:

من الصعب الوقوف على المراحل الأولى لرواية السيرة الشعبية ،لأنها **نص مفتوح** لم يغلق إلا بعد تدوينه في العصر الذي حددته الباحثة المصرية ألفت الروبي بالقرن 14م ق8هـ في زمن المماليك ، غير أنه ليس من الصعب الوقوف على طبقا ت السيرة و رواتها إذ نجد داخل فصولها و حكاياتها أكثر من راو ،و كل راو يبني حكايته على خطابه هو و خطاب المرحلة و الزمن الذي يعيش فيه ،حيث نجد **حكايات عربية فارسية تركية بل و حتى أوروبية قديمة أي تخضع لما طبع العصر من امتداد ثقافي أو تأثير سياسي ناتج عن حاكم كل مرحلة أو عصر**.و عموما لقد مرت السيرة الشعبية بطورين هما طور المشافهة الذي يمتد إلى العهد المملوكي و هناك من يوصل هذا الطور إلى الثلاثينيات من ق20م، و طور التدوين الذي يبدأ من العهد المملوكي وما بعده أو من ما بعد مرحلة الثلاثينات من ق 20م.وهي تنتمي إلى:

الأدب الشعبي أو أدب الهامش:

هو الأدب التلقائي البعيد عن المحاذير السلطوية ،و هو أدب يتضمن حقائق السياسية و الممارسات العقدية و العادات و التقاليد ، بل هو الأدب الذي يجسد التاريخ الحقيقي للشعب المحكوم ،المضطهد.

و يتميز الأدب الشعبي بخاصية التأليف الجمعي ،وهي السمة التي تطبع الفنون البدائية ،مما يجعله الأسبق إبداعا و وجودا بالنسبة للأدب الرسمي.

لقد أصبح اليوم الكتاب و المبدعون يعمدون إلى توظيف التراث في مظهره(الأدب الشعبي)تجريبا و بحثا عن التطوير في بنيات النصوص ،و كذلك في تطوير مهارات في تطوير مهارات السرد و اختلاق الشخصيات كنماذج راسخة في أذهان المتلقين .

و كذلك للإفادة الإيجابية منه كتيار رئيسي كشفت عنه دراسات التناص الحديثة و التي أكدت الامتداد المؤثر للأدب الشعبي في أصلاب الأدب الرسمي بكل أجناسه قديما و حديثا.

الأدب الرسمي:

هو الأدب الفصيح الذي يحكي تاريخ السلطة ،و الذي اعتنى فيه أصحابه بالتأريخ للحاكم على حساب الشعب المحكوم.

مرتكزات بنية السيرة الشعبية :حكايات الماضي الشفهية و المكتوبة مثل الخرافات و الحكايات الشعبية المليئة بالجن و السحر و قصص الأنبياء و الأولياء الصالحين و أيام الجاهلية وأخبار الفتوحات و قصص الفرسان ،حيث شكلت روافد مهمة استقى منها الراوي الشعبي عناصر لتشكيل الأجواء الملحمية التي صورها ،لكن الراوي الشعبي مارس فيها حرية واسعة في التعامل مع التاريخ من حيث الأحداث و الشخصيات.

السيرة الشعبية و إشكالية التجنيس:

يرى أحمد شمس الدين الحجاجي بأنها أحد أنواع الأدب العربي الذي أهمل و أغفل ،لأنه لم يندرج ضمن الأنواع الأدبية المعروفة ،و هذا الإهمال اشترك فيه الباحثون العرب و غير العرب ،و قد أدى هذا التهاون في جمع نصوصها إلى ضياع هذه النصوص ، يقال إنها كانت تروى إلى غاية الربع الأول من القرن العشرين.

هل هي رواية؟

هي ليست رواية لأنها ظهرت و تمت قبل أن تظهر الرواية و تعرف خصائصها الفنية التي لم تستقر في نوعها ، و يظهر غيرها من الأنواع الأدبية .

هل هي ملحمة ؟

الفرق بين السيرة الشعبية و الملحمة :

ـ في السيرة الشعبية تتجاوز الإحالة إلى تواريخ متباعدة

ـ تجتمع شخصيات تاريخية متباعدة

ـ القصة المركزية فيها هي قصة البطل منذ المبتدأ إلى الوفاة تنتظم في وحدات حكائية متفاوتة الطول تتعلق بالنسب و النبوءات المبشرة بالولادة و النشأة الصعبة .

ـ الخلو مما يخالف المعتقد الإسلامي كتعدد الآلهة و توالدها.

التشابه بين السيرة الشعبية و الملحمة:

ـ شديدة الطول .

ـ يتميز الأبطال فيها بالشجاعة الخارقة .

ـ اختلاط الأحداث التاريخية بكثير من الخرافات و الأساطير و الجن و المعجزات و الكرامات و الرؤى.

ـ اتساع رقعة الميدان الذي تتحرك فيه الوقائع و الشخصيات

ـ استخدام الشعر لرسم موقف الأبطال من الأحداث و رصد الانفعالات التي يكون فيها الشعر أصدق دلالة و أبعد أثرا .

إن وجه الاتفاق بين السيرة الشعبية و الملحمة لا يجعل من السيرة الشعبية ملحمة في آخر الأمر؛فالسيرة تتجاوز إلى الإحالة على تواريخ متباعدة ،وهي تجمع فيها شخصيات تاريخية تفصل بينها قرون ،و هي تخلو مما يخالف المعتقد الإسلامي كتعدد الآلهة و توالدها،و إن كانت تتشابه معها من حيث شدة الطول ،و يتميز الأبطال فيها بالشجاعة الخارقة ،واختلاط الأحداث التاريخية بكثير من الخرافات و الأساطير و اتساع رقعة الميدان الذي تتحرك فيه الوقائع و الشخصيات ،وورود الجن والكرامات و المعجزات والنبوءات الصادقة،كذلك استخدام الشعر فيها يأتي لرسم موقف الأبطال من الأحداث و رصد الانفعالات التي يكون فيها الشعر أصدق دلالة و أبعد أثرا ، فالشعر يساعد و يحسن في السيرة الشعبية لكنه لا يؤثر على بنيتها القصصية.

هل السيرة الشعبية تاريخ؟

إن تقاطع السيرة الشعبية مع التاريخ لا يجعل منها نصا تاريخيا على الإطلاق.و علاقة السيرة الشعبية بالتاريخ تتبدى في كون السيرة الشعبية تهتم بالجانب التاريخي لمجتمعاتها، و الأحداث التي ارتبطت بها و كذلك تعد وثيقة شاهدة على العصر و الجماعات في البادية كما في المدن.

ما الهدف من استدعاء التاريخ في السيرة الشعبية؟

الهدف من استدعاء أحداث التاريخ العربي و الإسلامي و معاركه الكبرى و أبطاله المشاهير هو:

الحاجة التي كانت هذه القصص تلبيها لجمهورها الواسع من الجماعات الشعبية، التي كانت مسحوقة من الاستبداد و حالمة بالبطل المنقذ،و هكذا تضعنا السيرة أمام هدف الحاجة القومية (الهدف القومي).أستدعاء فرسان العرب ليكونوا أبطالا لعصور غير عصورهم،ويعلل بعض الدارسين ذلك بأنه نوع من استحضار الماضي المجيد لمواجهة عصر انحسر فيه الدور العربي الإسلامي أو تعلق الجماعة الإسلامية بذكرياتها كما يرى باحث آخر الهوس بالمجد الغابر و التحسر و الألم على حقبة القوة في زمن الفتوحات و البطولات التي عرفتها الأمة وقد تكون نوعا من تأكيد الهوية والرغبة لتلك المجتمعات

الدور الاجتماعي و القومي للبطل ،إذ تجعل منه الفارس الذي لا يهدأ في الدفاع عن المظلومين حتى أثناء رحلة المطامح الذاتية ،و تجعله الفارس الذي يقود قومه ضد العدو الخارجي في زمن اهتز فيه الوجدان العربي بسبب الحروب الصليبية مما دفعه إلى أن يعتصم بزمن البطولة ؛فعنترة لم ينته بزواجه من عبلة ولا سيف بن ذي يزن من شامة و الظاهر ببرس لم ينته بالسعي إلى السلطة.

خصائص السيرة الشعبية :

يقوم المحور الرئيسي للأحداث و الأفعال في مختلف السير على الصراع بين الخيرو الشر ؛فالبطل و مساعدوه في مواجهة مستمرة لمكائد العدو و البطل يتميز بدهائه و مكره

و الصراع بين الخير و الشر ،هو سمة السيرة الشعبية في علاقة الشخصيات ببعضها البعض،لكن هناك مساعدة لطرف على آخر من شخصيات بشرية و غير بشرية ،لها قدرة خارقة، كالأولياء الصالحين و السحرة و الجن و العمالقة و المسوخ ،التي لها القدرة على التحول والحركة.

تتفرع الحكايات في السيرة الشعبية باستمرار من الوحدات الحكائية الكبرى ،و تتعدد الشخصيات تعددا يتجاوز قدرة الذاكرة على الإحاطة بالتفاصيل و الجزئيات ؛(هناك شخصيات مساعدة للبطل وأخرى معيقة و معرقلة له ،ثم هناك شخصيات تظهر في وحدات جزئية ثم تختفي).

تعد السيرة الشعبية شكلا سرديا شديد الأهمية في الثقافة العربية،فقد أطلقت القصص الديني إلى أبعد مدى إضافة إلى أنه فسح المجال لأنماط أخر من السير مثل كتب التراجم و المعجميات البلدان و الأعلام و السير التاريخية و الذاتية

المحاضرة الخامسة: فن القص في الأدب العربي القديم

تمهيد:

الإنسان ذو نزوع في حياته اليومية إلى القص و الحكي إلى الآخرين أو السماع إليهم ،ليعبر عن تجاربه و يصور ما يجري له ويقع ،أو للتسلي و التسامر في أوقات الفراغ ،أو لأن خياله يستثار وتشبع حاجاته الروحية و الوجدانية و الاجتماعية من خلال الحكايات و القصص المشوقة و الأحداث التي تقع.

و الفن القصصي من أشكال النثر التي عرفها العرب قديما ،فقد كان لهم قصص ،وهو باب كبير من أبواب أدبهم وفيه دلالة كبيرة عليهم ،كم يقول أحمد أمين ،**فما مفهوم القص و ماهي دلالته في الاصطلاح** :القص كما عرفته المعاجم العربية القديمة يتضمن تتبع الأثر و الإخبار ،فقصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئا بعد شيء ،وقص آثارهم يقصها قصا تتبعها بالليل و تقصص الخبر تتبعه و القص إتباع الأثر ، والقاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر و سوقه الكلام سوقا و القص فعل القاص إذا قص القصص ،و القصة الخبر و هو القصص و الأمر و الحديث .و القصص (بفتح القاف)الخبر المقصوص و القصص (بكسر القاف) جمع القصة التي تكتب. وقد وردت كلمة (قص) في القرآن الكريم باشتقاقاتها المختلفة ؛فقد جاءت في سورة الأعراف آية10(تلك القرى نقص عليك من أنبائها) و في سورة هود(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك)آية120 و في سورة الكهف آية 13(نحن نقص عليك نبأهم بالحق) و في سورة القصص آية11 (وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون)و في سورة يوسف 111(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) ،و المتأمل في معاني استخدام هذه المفردة في هذه الآيات يجدها ذات معاني متعددة فقد دلت على النبأ و الإخبار و تقصي الأثر و تتبعه و العبرة والاتعاظ .كما تحيلنا بعض الأحاديث النبوية إلى هذه الكلمة :لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال ، و إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا ،..لا تقم من مجلسك ولا تقطع قصصك فإني أمرت أن أصبر مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه. على ما تدل عليه هذه الأحاديث من المنظور العقائدي للقص ؛التنفير و التحذير منه.

أما حديثا،فالقصة تعني مجموعة الأحداث المرتبة ترتيبا نسبيا تنتهي إلى نتيجة طبيعية لهذه الأحداث ، و تلك الأحداث المرتبة تدور حول موضوع عام هو التجربة الإنسانية النفسية والاجتماعية ، و عرفت كذلك بأنها حكاية تحكى في زمن يرويها الكاتب .

القص العربي القديم نشأته و تطوره

في الجاهلية :

أجمع الدارسون على أن العرب في جاهليتهم كانت لهم قصص كثيرة ،فقد كانوا شغوفين بالتاريخ و الحكايات التي تدور حول أجدادهم و ملوكهم و فرسانهم و شعرائهم أي ما ارتبط بالحرب و وصف أيامهم و بطولاتهم أو ما صور عواطف الناس و حبهم و آلامهم ،أو ما ارتبط بواقع الحياة و اتصل بمضامين القيم التي عرفت في عصرهم و بيئتهم كالشجاعة والبطولة و الوفاء التي اهتم بها الرواة و تداولوها جيلا بعد جيل و دونت بعد الإسلام في عصر التدوين والتي ذكرت في كتب التراث العربي ، كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الذي يكاد يكون ذخيرة حية من القصص عن الشعراء و مجالسهم مع الملوك ، والأمالي للقالي و صبح الأعشى للقلقشندي و العقد الفريد لابن عبد ربه ،وكتب الأعلام و التراجم و السير ومجمع الأمثال للميداني، مما لا يدع مجالا للشك أن الفن القصصي تناول الحياة الجاهلية بكل مظاهرها و معتقداتها ، و هو ما يؤكد أن هذا الفن أصيل قديم متجذر في ثقافتنا وأدبنا

العربي.كما أن كتب التاريخ التي عادت إلى المرحلة الجاهلية أشارت إلى وجود عدد ممن تصدوا لمهمة القص، يقول ناصر الدين الأسد " كان في الجاهلية من ينصب نفسه لتعليم الأخبار قصص التاريخ فيقصده من يقصده يستمليها و يكتبها ،و قد أنبأنا النبأ اليقين بذلك كتاب الله ، نذكر من ذلك قوله تعالى :(و قالوا أساطير الأوليين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة و أصيلا) ، سورة الفرقان آية 5، وقوله تعالى : (وإذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) ،سورة القلم آية 15.

في العصر الإسلامي :

تغير الوضع عما كان عليه في الجاهلية ،و تمثل ذلك في مجيء دعوة الإسلام ، و نزول الوحي متمثلا في القرآن الكريم ،ولعل ما يلفت الانتباه فيه ورود كلمة (قص) فيه باشتقاقاتها المختلفة كما ذكرنا في الدلالة المعجمية ،إضافة إلى ما ساق القرآن من قصص كثيرة متراوحة بين الطول والقصر خاطب القرآن بها العرب ، كقصة صاحب الجنتين و قصة أهل الكهف و قصة موسى و الخضر و قصة ذي القرنين و كلها في سورة الكهف و كذلك قصة سليمان و الهدهد و سليمان و الملكة بلقيس ملكة سبأ و قصة سليمان و النملة في سورة النمل ، كذلك قصة مريم و قصة يوسف

وقد جاءت هذه القصص إظهارا لنبوة الرسول (ص)و تأسيا بأخلاق و آداب ومكارم الرسل و الأولياء الصالحين السابقين ،وتثبيتا للرسول و تأديبا و تهذيبا وعبرة لأمة الرسول،ومظهرا لإعجاز القرآن بما أخبر عن الأمم السابقة و البائدة .

كذلك تضمنت الأحاديث النبوية قدرا كبيرا من الأقاصيص التي مثل بها الرسول لما يريد تمثيله من ألوان السلوك الإنساني و التهذيب ،وتنقل لنا الروايات وكتب التراث أن القاص النضر بن الحارث ت2هـ،كان كافرا مناصبا العداء للرسول و الإسلام ،كان إذا قام الرسول (ص)من مجلس يخلفه ويشرع في القص على الناس و يحدثهم عن ملوك فارس و رستم و اسفنديار ،و كان يقول مواجها متحديا الرسول (ص):أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلم إلي فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، وتورد الكتب أيضا اسم كعب الأحبار ت32هـ وكنيته أبو إسحاق الذي اشتهر برواية المأثورات اليهودية عند المسلمين (الإسرائيليات)،كذلك تنقل لنا المصادر أن أول من قص في مسجد الرسول هو تميم الداري ت40هـ،الذي قربه الرسول إليه و روى قصة رواها هي قصة الجساسة و الدجال ،وهو الذي سمح له عمر بن الخطاب بالقص في يوم الجمعة عقب كل صلاة، و كان يحضر مجلسه ،كما كان يقص يومين في الأسبوع في عهد عثمان ،إضافة إلى عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ت68هـ ،الذي كان يخصص يوما للفقه و يوما للتأويل ويوما للمغازي و يوما للشعر و أيام العرب .

و ما يلاحظ عن القص في هذه الفترة أنه قد صار و وعظيا تأديبيا يرغب الناس في الخير و العمل الصالح و يرهبهم من الشر و ما يتعارض مع التقوى، و كان ذلك من أقوى الأسباب التي أدت إلى رواج القصص و نموها في صدر الإسلام و ما تلاه من عصور .

في العصر الأموي:

شهد هذا الفن تطورا ملحوظا في هذا العصر، و تنقل كتب التراث أن عصر معاوية بن أبي سفيان قد شهد نوعا من التدوين القصصي ،و ترجح الروايات أن عبيد بن شرية الجرهمي اليمني ت67هـ من أقدم المؤلفين في القصص و الأخبار و الأمثال وهو أحد معمري العرب أدرك الإسلام فأسلم وقدم على معاوية ،الذي أمر بكتابة ما كان يسرده من أخبار ملوك الماضين، فتألف من ذلك كتابه (أخبار الأمم

الماضية)،وقد طبع في العصر الحديث بعنوان (أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن و أشعارها و أنسابها)

ومن أشهر المؤلفين أصحاب المدونات في هذا العصر وهب بن منبه ت110هـ ،فقد عرفت له عدة كتب تنحو المنحى الإخباري القصصي منها كتاب (المبتدأ في الأمم الخالية ،وقصص الأنبياء و المغازي رسالة في سير النبي) لكن كتابه الذي نال الأهمية و الشهرة في هذا المجال هو كتاب (كتاب الملوك المتوجة من حمير و أخبارهم و قصصهم و أشعارهم)و هو الكتاب المعروف في عصرنا ب (كتاب التيجان في ملوك حمير)من طريق ابن هشام ،وقد تناول فيه تاريخ اليمن ، و تكلم عن خلق العالم و قصص آدم و أولاده حتى عهد نوح و تاريخ العرب الساميين،و تشير الدراسات بأن التأثر بالقصص القرآني واضح فيه و أنه يتميز بأسلوبه البسيط

و في هذا السياق الفني الإخباري القصصي، جاءت كتب المغازي و أخبار الفتوحات و أخبار الخلفاء الراشدين و الخلفاء الأمويين ،و قد اشتهر فيها عروة بن الزبير بن العوام ت93هـ و أبان بن عثمان بن عفان ت105هـ،أما أشهر من دون في أيام العرب و حروبها فهو أبو عبيدة معمر بن المثنى ت211هـ هذه الأيام التي اضطر المفسرون والشراح إلى تفسيرها وقص أخبار هذه الأيام التي قالت العرب بأنها حدثت بسبب داحس و الغبراء أو البسوس أوفي يوم أو الفجار أو ذي قار، بكل ما اشتملت عليه من أخبار وقصص عنها وعن الفرسان الذين شاركوا فيها ،وبما عكسته عن العقلية العربية والقيم التي سما إليها الإنسان العربي ،فجلت لنا صورة وملامح النثر العربي القديم في مراحله الأولى.

في العصر العباسي :

تطور النثر في هذا العصر و اتسعت موضوعاته إلى أكثر مما كانت عليه في نهاية العصر الأموي بسبب حركة الاتصال بالأمم التي فتحت ،و الترجمة ونقل المعارف التي عرفت في تلك المرحلة ،إضافة إلى الانفتاح الفكري للثقافة العربية الإسلامية في هذا المجال ،و التي لم ترفض المترجمات القصصية من الثقافات الأخرى،فدخلت كثير من أشكاله في التراث الأدبي ،و كان من ثمرة ذلك ظهور ألوان جديدة من القصص ككتاب: كليلة ودمنة لابن المقفع، الذي اشتمل على حكايات و أقاصيص على ألسنة الحيوانات و الطير و البهائم، ساقها ابن المقفع لإظهار كيفية سياسة الرعية أو كيف تكون العلاقة بين الراعي و الرعية ،وبذلك عدت من القصص أو الحكايات الرمزية ذات الطابع التعليمي، لما اشتملت عليه من أنواع الحكم و الأمثال التوجيهية لصلاح الراعي و الرعية أو الفرد و الجماعة .

كذالك كتاب :ألف ليلة وليلة ،الذي يعد مصدرا رئيسا للقص و السرد العربي ،بما اشتمل عليه من حكايات و سرود عجيبة تضمنت أنساقا عدة دينية و سياسية و تاريخية و ثقافية ،والتي كان سبيلها إلى العربية عن طريق الترجمة ،فهي أحاديث منقولة عن الفارسية و الهندية والرومية و أن أصل تسميتها هزار أفسانة ،كما ذكر المسعودي في مروج الذهب و ابن النديم في الفهرست.

إضافة إلى : الزوابع و التوابع لابن شهيد الأندلسي ت382هـ ،و تبرز قيمة الكتاب في كونه عبارة عن قصة، جمالها في نسج أسلوبها و بعد مراميها الفكرية و الحضارية و الفنية ، تسوده الحكاية المغلفة بروح الفكاهة والسخرية بالرغم من أنه يدرج في كتب النقد الأدبي ،فهو قصة رحلة خيالية إلى عالم الجن قام بها ابن شهيد مع تابع اسمه زهير بن نمير و لقي شياطين المشرق وكتابهم ،و جرت بينهم مطارحات أدبية و مناقشات لغوية تجلت فيها آراء ابن شهيد النقدية و انتزع منهم اعترافهم بتفوقه و جودة أدبه، فضلا عن الفكاهات و الدعابة التي سرت في هذه الرسالة.

و في هذا السياق نشير إلى :رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، وهي رسالة كتبها في موضوع خيالي عن زيارة للعالم الآخر الرحلة إلى عالم الجنة و النار ،و ما جرى بينه وبين شعراء الجاهلية و الإسلام وغيرهم من الأدباء ،تطرق فيها إلى أهم القضايا الأدبية و النقدية و الدينية و اللغوية التي شغلت عقل الإنسان العربي في عصره ،وقد كانت مصدر إلهام لدانتي الياجيري لكتابة الكوميديا الإلهية في القرون الوسطى.

كذلك، ظهر نوع من القصص الخيالي في العصر العباسي عند ابن طفيل الأندلسي ت 500هـ في قصته :حي بن يقظان، التي تعد من أعظم الأعمال الفكرية في ذلك الوقت والتي هدف بها إلى إثبات معرفة الخالق و الإيمان به عن طريق الإشراق الروحي و التأمل العرفاني، وقد كانت هي أيضا مصدر و حي و إلهام للكاتب دانييل فو في روايته :روبنسون كروزو .

ينظر الكتب الآتية:

ابن منظور:لسان العرب
المسعودي:مروج الذهب
ابن النديم :الفهرست
عبد الله إبراهيم :موسوعة السرد العربي
ضياء الكعبي :الأنساق الثقافية و إشكاليات التأويل
ركان الصفدي:فن القص في النثر العربي القديم حتى مطلع القرن الخامس الهجري
حسين محمد فهيم :أدب الرحلات .
حسني محمد حسين :أدب الرحلة عند العرب .
الشرق و الغرب في مدونات الرحالة العرب و المسلمين/أبحاث ندوة الرحالة العرب و المسلمين ،اكتشاف الذات و الآخر / دورة جوان 2005.
حسين مؤنس : ابن بطوطة و رحلاته ،تحقيق و دراسة وتحليل.